نركع أم نموت واقفين؟

بروفيسور عبد الستار قاسم

تعتبر الازدواجية أو الثلاثية الأخلاقية، أو تقلب المعايير الأخلاقية وفق المصالح الذاتية من أهم أسباب تدهور الأمم وانحطاطها وتمزقها وفشلها، ذلك لأن العلاقات العامة بين الناس تفقد موازينها وضوابطها فتسود الفوضى والشكوك والانتهازية والارتجالية والفهلوة والاستهتار بحقوق الآخرين. عندما يغيب المعيار الأخلاقي وتحل محله المصلحة الذاتية وما يتبعها من معايير أخلاقية متقلبة ومتضاربة تتعدد السلوكيات والمسالك، وتضعف قدرة الناس على توقع ردود الفعل فيقعون في حيرة تدفعهم نحو التفكك والتحلل تدريجيا من الالتزام. وهكذا تتدهور الأمور إلى أن يتحول انتهاك الحرمات والمحرمات نوعا من الشطارة و"الجدعنة"، والالتزام الأخلاقي نوعا من الهبل يجر على صاحبه الأزمات النفسية.

ربما لاحظ الفلسطيني كيف أن حماس قد أخذت تحسب عدد الأصوات التي حصل عليها رئيس السلطة الفلسطينية بعدما فاز بانتخابات الرئاسة. قالت أنه حصل على حوالي 30% من أصوات من يحق لهم الانتخاب. لكن فتح جادلت أنه حصل على 64%. ولا بد أن الفلسطيني لاحظ أن فتح تقول إن حماس حصلت على 41% من الأصوات في انتخابات التشريعي. أما حماس فتقول إنها حصلت على 60% من المقاعد. الفكرة هنا ليست في الأرقام وإنما في الازدواجية الأخلاقية التي تدفع كل طرف إلى تغيير طريقته في الحساب وفق ما تقتضيه المصلحة. وإذا كنا سنتابع السلوكيات على الساحة الفلسطينية، نجد أن المتضاربات الأخلاقية كثيرة وتتكرر في مواقف يومية سواء على المستوى الشخصي أو الجماعي أو حتى المجموعاتي.

ظهر التناقض الأخلاقي في الآونة الأخيرة بعد فوز حركة حماس في الانتخابات. حملة إرعابية واسعة تم شنها من قبل فلسطينيين ضد الفلسطينيين بخصوص لقمة الخبز التي ستنقطع بسبب غضب أهل الغرب من نتائج الانتخابات التشريعية الفلسطينية. قالوا للناس عبر مختلف الوسائل مثل المقابلات المتلفزة والمقالات والمحاضرات بأن الدول الغربية لن تقدم المساعدات المالية وأن الرواتب ستنقطع وسيدخل الشعب الفلسطيني في نفق من الجوع. كثيرون أخذوا يحسسون على بطونهم وأمعائهم الخاوية سلفا، ويعضون على الأصابع ندما على إغضاب رب اللقمة.

قادة حملة الإرعاب هم أنفسهم الذين طالما رفعوا شعار "نموت واقفين ولن نركع" المتابعون أمثالي كانوا يعلمون أن الشعار لم يكن من أجل أن يطبقه رافعه وإنما من أجل أن يطبقه غيرهم، وكنا نعلم أن الشعار الحقيقي لديهم وغير المسموع هو "الهريبة ثلثين المراجل" كان الموت ولا الركوع شعارا يخدم مصالح ذاتية معينة على مدى زمني طويل، أما الآن فلا معنى للشعار ما دام الركوع هو الذي يحقق المصلحة. هذا ناهيك عن أن آلاف الناس الذين رددوا الشعار الثوري قد وضعوه في البراد إلى حين حل مشكلة البطون.

ألم يفكر الناس بداية بأن الاعتماد في لقمة الخبز على الغير عبارة عن عار وهدم للذات الإنسانية وهدر للكرامة؟ وألم يفكروا كيف يمكن أن تكون الأمور إذا كان هذا الغير هو العدو؟ هل من عاقل يضع لقمة خبزه تحت رحمة عدوه؟ أليس هذا هو قمة الركوع؟ لا غرابة، فطالما رفعنا شعارات ودسنا عليها بأقدامنا وفعلنا نقيضها، وتبجحنا بأننا نقوم بالعمل الصحيح. ربما على الكثير منا أن يبدل شعاره فيقول "نركع ولا نجوع"

نحن لا ننسى إدخال العنصر الديني في دعم مواقفنا المتناقضة. في المتسع من الوقت، تجد أحدنا يقول إن الرزق على الله، ولا بد للمرء ألا يبالي بضغط العدو لأن الله أكبر. أما في الضيق من

الوقت فنرشد بعضنا بأن علينا ألا نلقي بأيدينا إلى التهلكة. وفي المتسع نقول بأنه لا يقطع الرأس إلا الذي ركّبه، وفي الضيق نقول بأن من لا يستطيع تغيير الأوضاع بيده فعليه ألا يقبلها بقلبه. في كثير من الأحيان نحن نحاول ترحيل تناقضاتنا إلى رب العالمين وإلى رسوله الكريم. في هذا قمة التدهور الأخلاقي.
وأحيانا نعمل على فلسفة الأمور لكي تبدو في رونق زاه يسر المستمعين. منا من يقول أن هناك واقعا لا بد أن نتعامل معه إذا كنا حكماء. حقيقة هو لا يدعو إلى التعامل معه بهدف التأثير عليه ليتحول لصالحنا وإنما يدعو إلى القبول به. هذا عبارة عن نفي للذات لأن فيه قبولا لواقع صنعه غيري وأنا لا دور لي فيه إلا أن أكون المطية التي يسري عليها. الإنسان الأخلاقي لا يقبل الواقع كما هو، وإنما هو الذي يرى الواقع على حقيقته بدون خداع ويضع الخطط الضرورية لتغييره لصالح أمته أو شعبه ويقوم بعملية التنفيذ بشجاعة وحكمة. الهروب من مسؤولية إحداث التغيير وفق متطلبات الشعب أو الأمة عبارة عن تدهور أخلاقي.
في كثير من الأحيان يحاول بعضهم أن يبدو عبقريا ومنقذا، لكن علينا أن نقيس الأمور بنتائجها، والحصاد عادة من جنس البذار. شعارات كثيرة رفعناها قد سقطت، وراية تحرير فلسطين قد اختفت، والاعتماد على الذات شعار ضاع في زحمة التسول من الدول الغربية، والتعامل مع العدو أصبح مصلحة وطنية، الخ. نحن نمر عن متسول في شارع فنهز رؤوسنا مستنكرين، فماذا عن شعب بكامله حولناه إلى متسول، وننزل في قلبه الرعب إذا أراد التمرد على مصدر التسول؟
قوة المرء أولا في قوته الأخلاقية، وإذا غابت انهدم كيانه حتى لو توفرت له أموال الأرض ومعداتها. نحن بحاجة إلى مراجعة شاملة لما نحن فيه وعليه، ومواجهة الذات بشجاعة هي الخطوة الأولى نحو ذلك.

لا وطن لمن اتخذ الدينار إلها

بروفيسور عبد الستار قاسم

ليس من المشرف كثيرا أن تركز وسائل الإعلام المختلفة على ما يسمونه بالجوع الذي ينتظر الفلسطينيين. برامج متعددة تظهر على الفضائيات، وتصريحات كثيرة تتناقلها الوكالات العالمية حول المأساة الساحقة التي تنتظر الفلسطينيين. وربما هناك من يريد أن يذرف الدموع على الشعب الفلسطيني، أو يرى ضرورة انصياع الشعب للمطالب الإسرائيلية والأمريكية قبل أن يهلك الأطفال وتجهض النساء وتنفق المواشي ويجف الزرع والضرع. أقول لكم: ليخسأ ذلك الشعب الذي يواجه التحديات على مدى مائة عام إذا كان سينهار أمام قروش أهل الغرب. الشعوب العظيمة تصنع القرش ولا تنهار أمام القروش، وإذا كان الشعب الفلسطيني سيركع أمام الضغط فهو لا يستحق وطنا.
تجول في أنحاء الضفة وغزة فتسمع كثيرين من الناس يتحدثون عن الرواتب والوضع الصعب الذي ينتظرهم وأبناءهم. الحديث عن الفساد الذي قضى على الأخضر واليابس وحول الشعب إلى متسولين يكاد يختفي، وتلك الديون المتراكمة على الشعب الفلسطيني لا تكاد يذكرها أحد. تهالك الناس منذ بداية عهد السلطة على الحصول على وظائف، وتزاحموا إلى الوساطات والمحسوبيات من أجل أن ينالوا وظيفة تقدم في الغالب راتبا بلا عمل، وكانوا بذلك فرحين. تم تحذير الناس من هكذا وضع، لكن الآذان صُمت والقلوب أُقفلت. أغلب الموظفين في فلسطين لا يقدمون خدمة

للشعب مقابل ما يتقاضونه من رواتب، وهم الآن يريدون من حماس التنازل عن برامجها مقابل الراتب المغمس بالذل والهوان.
أروي لمن يريد البكاء التالي: توقفت الأعمال والأشغال في الضفة وغزة عندما اندلعت انتفاضة عام 1987، وأغلق التجار محالهم لفترات طويلة، وفرض الاحتلال حظر التجول لفترات طويلة وصلت إلى 45 يوما في المرة الواحدة. أغلقت دولة الصهاينة أبواب العمل وتوقفت عجلة الإنتاج الحرفي وشبه الصناعي في الأرض المحتلة، ووقعت بالفلاحين خسائر جسيمة نتيجة عدم القدرة على تسويق منتجاتهم. بلغت نسبة العاطلين عن العمل في حينه حوالي 70% من القوة العاملة. لكن الشعب الفلسطيني تكيف بسرعة مع الظروف.
كأستاذ جامعي، أنقل للقارئ كيف كانت تجربتي والتي تنسحب على كثيرين مثلي. تم اعتقالي لفترة تقارب السنتين، وفي هذا توفير للكثير من مصاريف العائلة، فضلا عن الوقت المتوفر للقراءة والكتابة. أما العائلة فتنازلت عن أكل اللحوم لصالح الفول والحمص والوجبات التقليدية التي تشتمل على البندورة (الطماطم) والزيتون والزعتر والبصل. كان يأتينا الضيف فلا نقدم له سوى الشاي أو القهوة، في حين أن كرم تقديم الفواكه أو المكسرات قد اختفى. وكنا جميعا نعذر بعضنا لأننا جميعا نعلم حالنا الاقتصادية. أما المرطبات فقد اختفت من البرادات وحل محلها الماء. ولا شك أن أوضاعنا الصحية قد تحسنت لأن مثل هذا الطعام والشراب يحتوي على القليل من السم والدسم.
إنني أذكر تلك الأيام الصعبة القاسية التي كنا نأكل فيها ثلاث وجبات من التمر غير الجيد. كانت تأتينا قفف (ما يشبه الصاع) التمر بأسعار زهيدة جدا، وكان آباؤنا يشرحون لنا تلك الفوائد العظيمة التي يحتويها التمر، وكيف أن أكله يصنع الرجال. أما أيام الشتاء وبعدما كانت تنمو الأعشاب، كنت ترى نساء فلسطين قد انتشرن في الحقول يبحثن عن عشب الخبيزة (عشبة شبيهة بالسبانخ وتعتبر برية) ، وكانت العائلة تأكل اليوم خبيزة خالصة، وفي اليوم التالي خبيزة مع قليل من الأرز، وفي اليوم الثالث خبيزة مع ثُمن كيلو غرام لحمة مزورة (أغلبها من دهون صدر الخروف) . كنا نحسّن طعمها مع بعض الزيتون والفلفل.
اعتاد شعب فلسطين مواد غذائية مثل الدبس والقمح وزيت الزيتون والبقوليات وجميد اللبن والجبن الشامي واللبنة. أما رب البندورة فكان يتم تجفيفه بعين الشمس وتخزينه، وكذلك البامية والملوخية.
عاد أغلب أبناء الشعب الفلسطيني إلى هذه الابتكارات الغذائية خلال انتفاضة 1987. وهنا أذكر كيف هبت القرى المجاورة لمدينة نابلس للمساعدة عندما وقعت تحت منع التجول لفترة طويلة من الزمن. منع الاحتلال حينئذ حركة السيارات، فكنت تنظر إلى الجبال فترى أهالي القرى يسوقون دوابهم محملة بالأغذية إلى مختلف أحياء المدينة.
في انتفاضة عام 1987، توقف عن العمل حوالي 130,000 عامل فلسطيني كانوا يعملون في منشآت الصهاينة، وكان دخلهم أكبر بكثير من دخل 200000 موظف مهددين الآن بعدم تقاضي رواتبهم. لقد اجتاز الشعب الفلسطيني المحنة عام 1987، وهو سيجتازها الآن.
بالتأكيد الشعب لن يجوع إذا اقتنعنا أن فلسطين دائما بالخير تجود، وإذا تسلحنا بثقافة العمل والإنتاج. تمتاز فلسطين بطقس معتدل ومنسوب مياه أمطار مقبول ومناسب للزراعة الشجرية والحقلية، وتتوفر فيها مساحات واسعة مزروعة أو صالحة للزراعة. إذا أحسنا صنعا فإنه بإمكاننا إنتاج ما يكفينا من زيت الزيتون والبقوليات والعنب والدبس ومنتجات الألبان والدجاج والزعتر والقطين. مشكلتنا الأكبر هي في إنتاج القمح حيث أننا استهلكنا مساحة واسعة من الأراضي

الزراعية المناسبة لزراعة القمح لبناء البيوت والعمارات. أذكر هنا سهول جنين وعرابة وطولكرم ودورا وبيت أمر والبيرة.
مشكلة الشعب الفلسطيني الآن لا تكمن أساسا في نقص الأموال وإنما في تلك الثقافة الاستهلاكية المتهالكة التي صنعتها السلطة الفلسطينية. أتانا أناس لا يحبون بساطة الحياة، ولا يعجبهم الخشن من الفراش أو المتواضع من الثياب، وساقوا الناس نحو مصالحهم الخاصة ولو على حساب المصالح العامة. هؤلاء هم الذين يعملون الآن على تثبيط همم الشعب الفلسطيني وكسر معنوياته وذلك بالتعاون مع إسرائيل وأمريكا. هم الذين فسدوا في الأرض أثناء توليهم الحكم، وهم يصرون على متابعة مشوار الفساد.
في الأوقات الصعبة، يجب على الإنسان أن يختار بين تماسكه الذاتي وسمو نفسه وبين الانهيار أمام متع الحياة. سيعلو الشعب الفلسطيني على كل المغريات وسيبقى قابضا على الجمر. وشعب فلسطين سيعود إلى قاعدته العربية والإسلامية التي ما زالت قيم الأصالة تدب في قلوب العديد من أبنائها، آملا في التخلص من نير الأموال الغربية.

التماسك الذاتي فوق المساعدات

بروفيسور عبد الستار قاسم

بالتأكيد نحن لن نجوع إذا اقتنعنا أن هذه البلاد دائما بالخير تجود، وإذا تسلحنا بثقافة العمل والإنتاج. تمتاز بلادنا بطقس معتدل ومنسوب مياه أمطار مقبول ومناسب للزراعة الشجرية والحقلية، وتتوفر فيها مساحات واسعة مزروعة أو صالحة للزراعة. إذا أحسنا صنعا فإنه بإمكاننا إنتاج ما يكفينا من زيت الزيتون والبقوليات والعنب والدبس ومنتجات الألبان والدجاج والزعتر والقطين. مشكلتنا الأكبر هي في إنتاج القمح حيث أننا استهلكنا مساحة واسعة من الأراضي الزراعية المناسبة لزراعة القمح لبناء البيوت والعمارات. أذكر هنا سهول جنين وعرابة وطولكرم ودورا وبيت أمر والبيرة. زحفنا على الأراضي الزراعية مستمر ولا يبدو أن هناك من يصرخ محذرا من هذا الخطر. لكن الأوان لم يفت، بالإمكان أن نتخلى عن زراعة بعض الأصناف مثل البطيخ والشمام والبامية والكوسى لصالح القمح. بإمكاننا العيش بدون بطيخ، لكن الخبز يبقى مادة حيوية. ومن يريد تحرير وطن لا بد أن يمتلك الصبر على غياب البطيخ.
هذه الفقرة أعلاه حقيقة لا قيمة لها ولا معنى إن لم تتطور لدينا ثقافة استهلاكية وتحريرية مختلفة تماما عن الثقافة القائمة حاليا. ثقافة البحث عن الشوكولاته والبوظة الفاخرة واللذيذ من المشاوي والأطباق لا تتلاءم مع طاقات البلاد الإنتاجية؛ وثقافة البحث عن مشاكلنا لدى غيرنا بخاصة الأعداء لا تتناسب مع الرث من الثياب والخشن من الفراش. نحن لم نعد أولئك الذين يستطيبون التقشف من أجل استرداد الحقوق، ويبدو أن كثيرين منا يستطيبون التنازل عن الحقوق حرصا على متع الحياة. ولهذا ليس من الغريب أن يُتهم الداعي إلى الاعتماد على الذات بالهذيان. وبالرغم من ذلك، نجد الكثيرين من المعجبين عندما يُقال لهم بأن الرسول صلى الله عليه وسلم أكل العشب وقومه عندما طردتهم قريش خارج مكة.

على فرض أن البلاد لم تجُد علينا وضاق علينا الغذاء، فماذا نحن فاعلون؟ إذا كنت لا أريد التفكير في كرامتي الذاتية، فإنني أريد التفكير فيما سيكتبه التاريخ وما ستقرؤه الأجيال القادمة. أيهما أختار: ذلك التاريخ الذي سيكتب أنني تنازلت عن حقوقي لقاء حصولي على كيس الطحين، أم ذلك الذي يسطر بأنني فضلت الموت جوعا على حياة الذل؟ نظريا، قد يقول أغلب الناس إنهم يفضلون الموت جوعا، لكنني من الناحية العملية لا أرى أن مستوانا الأخلاقي الحاضر يؤهلنا لهذا الخيار.

ماذا فعلت إسرائيل بعد قيامها من ناحية متع الحياة؟ قررت أن تعيش حياة متقشفة ووظفت الأموال من أجل الاستثمار في مختلف مجالات الحياة. وعندما انتصرت علينا عام 1967 تدفق اليهود إلى مدننا لشراء البضائع بخاصة الأقمشة المتوفرة لدينا. نحن الذين هزمنا كنا نتمتع بالحرير من الثياب، بينما كانت ثياب نساء المنتصرين من قماش أشبه بالخيش. انتصر الصبر والعقل والتفكير السليم على الشهوة والارتجال والتفكير العقيم.

ربما من المهم أن يسأل المرء نفسه عن أفضل مصادر الاستمتاع. هل هي في حياة الرفاء أم في حياة الكبرياء؟ هل من الممكن أن يحترم الإنسان نفسه وهو يستمتع برحلة استجمامية يوفرها له غيره على حساب حقوقه؟ وهل يغيب الإنسان عن نفسه إذا فضل شظف العيش مقابل انتزاع حقوقه؟ ظني أن المرء الباحث عن الشهوة وفق إرادة الغير لا يمكن أن يرتقي إلى مستوى الإنسانية لأنه عبارة عن أداة بيد الغير تؤمر فتطيع، أما ذاك الذي يتحمل المعاناة المادية إنما يكون مليئا بدفء الاعتزاز الذاتي. ذلك يودي نفسه في هاوية الشهوة، وذلك يرتقي في امتلاك الذات واستقلالية اتخاذ القرار. ذاك ينفي ذاته ويحتقر نفسه ويستصغر شأنه، وهذا يؤكد نفسه ويفرض احترامها ويعظم شأنها. الأول ضعيف متهاو ومهزوم، والثاني قوي متماسك وسائر نحو نصر أكيد.

هذا فكر غائب عن جدلنا السياسي وعن تخطيطنا الاقتصادي والاجتماعي، وعن مضموننا الثقافي. يستسهل الناس في بلادنا الانحسار الذاتي وتغييب الذات ظانين أنهم يتجاوزون محنة تسهل عليهم التعامل مع محن قادمة بصورة أفضل. أوقعتهم ظنونهم في تراجع تلو تراجع حتى وضعوا لقمة خبزهم بأيدي أعدائهم، ووجدوا أنفسهم متنازلين عن حقوقهم، وواقفين مدافعين أحيانا عن أمن عدوهم، ومنهم الداعين إلى الاعتراف بمن انتزع نفوسهم وممتلكاتهم، ومطواعين لأنظمة صاغها غيرهم، الخ. هانت عليهم نفوسهم فهانوا على الآخرين. وبعد ذلك، هل يحق لأحد أن يسأل لماذا يستهتر الأعداء بنا، ولماذا لا يقيمون للعرب وزنا إلا لأولئك الذين يمتشقون السلاح سرا يدافعون به عن أمتهم. من هانت عليه كرامته، لن يجد غيره أحرص منه عليها.

أليس من المجدي أن نرتقي في مناقشة قضايانا إلى مستوى فكري بدل أن نبقى محصورين بقضايا آنية يفرضها علينا غيرنا؟ ألا تستحق الأمور ثورة فكرية قد تؤدي إلى إحداث تغيير في أنماط حياتنا وفي ترتيب أولوياتنا؟ ارتقت الأمم بفكرها وعملها، ويبدو أننا نتردد في التفكير والعمل. على الأقل، علينا أن نسأل لماذا أوصلنا أنفسنا إلى درجة يتحكم فيها أعداؤنا بلقمة خبزنا، وعن مدى الإيمان الذي يعتمر صدورنا ونحن قد وصلنا إلى هذا المستوى.